القرآن إلهى بمصدره
إنسانى بغاياته

إن كل آية من آيات القرآن ، وكل حديث من أحاديث الرسول ، يقصد إلى خير الإنسان على إطلاق دون تفضيل إنسان على إنسان إلا بميزان الأخلاق الإسلامية (التقى) ، ومايستطيع الإنسان تقديمه من الخير لأمة الإسلام (البر) ، وتلك هى القاعدة الصلبة التى اقام عليها الرسول أمة الإسلام .

وقفت فى حديثى السابق عند الشورى التى رأى الرسول ﷺ أن يجعلها قاعدة من قواعد بناء أمة الإسلام من أول الأمر ، فما كاد يعقد العهد والميثاق مع أهل العقبة الثانية على أساس الأخذ والعطاء حتى قرر مبدأ الشورى ، فطلب إلى اليثربيين أن يختاروا من بين أنفسهم اثنى عشر نقيباً أى ممثلاً لهم ، لكى يشاورهم فى الامر كما امر الله سبحانه وتعالى أمراً صريحاً جازماً لا يمكن التحلل منه فى الآية (١٥٩) من سورة آل عمران .

ورسول الله عندما قرر ذلك كان يعرف أنه بذلك يضع قاعدة أساسية من قواعد بناء أمة الإسلام ، لأن أمة الإسلام هى أمة الناس جميعاً وليست أمة جماعة من البشر دون جماعة والدين كله جاء لخير الناس ، والإنسان إطلاقاً هو محور الدين وجماعته ، والقرآن إلهى بمصدره ، ولكنه إنسانى بغاياته ، فليست فى القرآن آية واحدة لا يراد بها خير الإنسان والناس ، فالله سبحانه غنى عن

العالمين ، وإذا كان الدين عقيدة وشريعة فإن الإيمان بالعقيدة والتزامها خير كل الخير للإنسان ، والشريعة بقسميها ـ العبادات والمعاملات ـ هى طريق الخير للإنسان فى حياته على الأرض ، والقرآن كله ـ مهما اختلفت صيغة الخطاب فيه موجه للناس ، أقصد أنه موجه من الله إلى الناس إطلاقاً ، ومحمد ﷺ بشر من الناس ورسول إلى الناس .

وفى سورة الإسراء آيات بينات توضح المعنى الذى أريده :

﴿ قُل سُبحَـانَ رَبّى ، هَل كُنتُ إلَّا بَشَراً رَّسُـولاً ، وَمَامَنَعَ النَّاسَ أن يُؤمِنُواْ إذ جَآءهُمُ الهُدَى إلَّا أن قَالُواْ : أبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ، قُل لَّو كَانَ فى الأرض مَلَائكة يَمشُونَ مُطمَئنينَ لَنَزَّلنَا عَلَيهم مّنَ السمَاء مَلَكاً رَسُولاً .... ﴾ .

(الإسراء : ٩٣ ـ ٩٥) .

وعبـارة « ياأيهـا الذين آمنوا » تتكرر فى القرآن عشرات المرات ، وكذلك عبارة « ياأيها النبى » و « ياأيها الملأ » لأن الله سبحانه يخاطب الناس مباشرة ولن تجد الخطاب موجهاً فى القرآن إلى « أولى الأمر » أو إلى العلماء أو إلى الملوك أو إلى سراة الناس » ، لأن الإنسان العادى ، الإنسان إطلاقاً هو المقصود فى القرآن والإسلام كله ، ورسول الله واحد من الناس اختاره الله وزانه بالكمالات وهيأه لحمل رسالته إلى الناس .

وعندما اتجه الرسول إلى علية القوم ليكسبهم للدين قال له الله سبحانه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أن جَاءهُ الأعمَى ، وَمَايُدريكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَى ، أو يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذكرىَ ، أمَّا مَن استَغنىَ ، فَأنتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَاعَلَيكَ ألَّا يَزَّكَّى ، وَأمَّا مَن جَاءَكَ يَسعَى ، وَهُوَ يَخشَى ، فَأنتَ عَنهُ تَلَهىَّ ، كَلَّا إنَّهَا تَذكرةٌ ، فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ . (سورة عبس ١ ـ ١٢) .

لهذا فإن أمة الإسلام ينبغى أن تكون أمة الناس عامة وهى فى هذا تختلف عن أمم الجاهلية ، أمَّا ماقبل الإسلام فتلك كانت أمم الملوك والكهان وعلية القوم ، والأمراء والقادة ـ عسكريين وسياسيين ـ والأغنياء والأقوياء ولهذا فسد أمرها وضلت الطريق .

ولهذا طلب رسول الله من رجال يثرب أن يختاروا نقباءهم أو نوابهم لكى يشاوروهم فى الأمر ولكى يكون الأمر فى أمة الإسلام شورى .

ومن أكبر الدلائل على ذلك أن الله نزل القرآن بلسان عربى مبين ، أى واضح يفهمه عامة الناس :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ ، نَزَلَ به الرُّوحُ الأَمِينُ ، عَلَى قَلبكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذِرِينَ ، بلسَانٍ عَرَبِى مُّبِين ﴾ . (الشعراء الآيات ١٩١ ـ ١٩٥) . وفى سورة المائدة **﴿ قَدْ جَاءكُمْ منَ الله نُورٌ وَكتَابٌ مُبِينٌ ﴾** (من الآية ١٥) .

والقرآن يوصف فى القرآن نفسه مرة بعد أخرى بأنه « كتاب مبين » « وقرآن مبين » . . و « الكتاب المبين » ومهمة رسول الله ﷺ توصف بأنها « البلاغ المبين » .

﴿ وَلَقَد أرسَلنَا مُوسَى بأَيَاتِنَا وَسُلطَانٍ مبِين ﴾ . (هود : الآية ٩٦) .

فالمبين هنا هو « السلطان » وسلطان موسى كان السحر المبين . ويؤيد ذلك قول الله سبحانه فى سورة « المؤمنون » (الآية : ٤٥) . **﴿ ثُمَّ أرسَلنَا مُوسَى وَاخَاهُ هَارونَ بأَيَاتِنَا وسُلطانٍ مُّبِين ﴾** . ومثله قول الله فى سورة غافر (الآية ٢٣) . **﴿ وَلَقَد أرسَلنَا مُوسَىٰ بأَيَاتِنَا وَسُلطَان مُّبِين ﴾** . فقارن هذا بقول الله سبحانه فى أول سورة الزخرف : **﴿ حمٓ وَالكتَابِ المبِينِ إِنَّا جَعَلنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُم تَعقلُونَ ﴾** . (الآيات : ١ ـ ٣) .

والأمثلة من الآيات القرآنية هنا كثيرة جداً ، وكلها تؤكد المعنى الذى أقصد إليه هنا ، وهو أن رسالة الإسلام جاءت فى لسان عربى مبين يفهمه الناس كافة . حتى إذا أنت ترجمت معانيه إلى لغة أخرى كانت واضحة لا لبس فيها إذا كان الناقل محسناً لنقل المعانى من اللسان العربى المبين إلى لغة مبينة بلسانه أبا كان ، لأن القرآن كما قلنا موجه للناس على إطلاق » .

ولهذا أراد الرسول أن يكون على صلة مباشرة بالأمة فطلب إليها منذ البداية أن تختار الذين سيكونون من أهل الشورى .

وغريب من الأمر أن الذين فهموا رسالة الإسلام عندما استمعوا إليها كان معظمهم من بسطاء الناس فى الجماعة المكية والجماعة المدنية على السواء ، أما كبار القوم وسادتهم وفطاحل شعرائهم فلم يفهموا الرسالة أو فهموها وكبر عليهم أن يعملوا بها .

فهمها عمار بن ياسر ، ولم يكن بقرشى ولا مكى ، إنما هو ابن لاجىء يمنى يسمى ياسراً نزل مكة مع أخوين له : جاءوا من قبيلتهم عنس ليبحثوا عن أخ لهم . فدخل ياسر فى ولاء أبى حذيفة بن المغيرة من بنى مخزوم ، فزوجه أمة من إمائه تسمى سمية فأنجبت له ابنه عمار ، وكان عمار عندما بدأ رسول الله يدعو ، شاباً من عامة أهل مكة لا يقرأ ، ففهم الرسالة وأسلم هو وزوجه سمية وأسلم أبوه ياسر وأخوه عبد الله بن ياسر ، فتعلم ياسر بعد إسلامه وصار له فى أمة الإسلام شأن .

وفهمها ودخل فيها خباب بن الأرت ، وكان أسيراً فى مكة أصله من العراق وكانت فى كلامه لكنة إذا تكلم بالعربية وكان يعمل قيناً أى حداداً .

وفهمها صهيب بن سنان ، وكان أبوه سنان فارسياً أما هو فقد سباه الروم فنشأ فى بلادهم « فكان ألكن » كما يقول البلاذرى . فابتاعه رجل من قبيلة

كلب ، فقدم به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان سيد بنى تيم بن مرة بن كعب ، فاسترقه ثم أعتقه ، « فكان أحمر شديد الحمرة » ، فسمى رومياً لذلك .

وكان صهيب من السابقين الأولين ، وكان فى المستضعفين . فلما أسلم كان ينفق ماله كله فى إطعام المساكين ، وقد أحبه الرسول صلوات الله عليه وقال فيه : « صهيب سابق الروم » .

وفهمها بلال بن رباح ، وهو حبشى مكى وبيع فى مكة ، وكان فى أول أمره لا يكتب ولا يقرأ ، وقد أصبح بلال من كبار أمة الإسلام فى المدينة وخبره معروف .

وفهمها عامر بن فهيرة وكان مولداً من مولدى الأزد وكان مملوكاً يرعى الغنم لمولاه .

وفى موضع قادم من مواضع هذه الدراسة سنتحدث بإسهاب عن عمار بن ياسر وخباب بن الأرت ، وصهيب بن سنان وبلال الحبشى .

وفهمتها وأسلمت زنيرة وكانت جارية فقيرة يَرْميهـا سادة مكة بالجهل ، وكان أبو جهل يتندر بها ويقول « ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم ـ يريد المسلمين ـ فلو كان أمر محمد خيراً وحقاً ماسبقونا إليه . أسبقتنا زنيرة إلى رشد وهى من ترون ؟ ..

فاستمع إلى طرف من خبر زنيرة هذه يرويه البلاذرى فى أنساب الأشراف .

قال « وكانت زنيرة قد عذبت حتى عميت ، فقال لها أبو جهل : إن اللات والعزى فعلا بك ماترين ، فقالت وهى لا تبصره : وماتدرى اللات والعزى من يعبدهما ممن لا يعبدهما ، لكن هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد بصرى

فأصبحت من تلك الليلة وقد رد بصرها ، فقالت قريش : هذا من سحر محمد فاشترى أبو بكر رضى الله عنه جارية بنى المؤمل وزنيرة وأعتقهما .

أجل ، فهما هؤلاء وغيرهم كثيرون لأن الإسلام خاطب فيهم « الإنسان » خطاباً واضحاً مبيناً .

ولم يفهمها أبو جهل وهو الحكم بن هشام سيد بنى مخزوم ، وكان كاتباً قارئاً وسيداً مهيباً ذكياً ذا مال عريض . ولا نحسب أن أبا جهل كان كما نتصور رجلاً غبياً أحمق لا يفهم شيئاً ، بل كان رجلاً لبيباً ، وكان رسول الله ﷺ يرجوه للإسلام ، وقد دعا ربه ذات يوم فقال :

« اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » . والأول عمر بن الخطاب والثانى أبو الحكم عمرو بن هشام . . ولكن غناه ومركزه فى قومه جعله يحسب نفسه فوق الناس ، ولهذا لم يفهم رسالة الإسلام لأنها رسالة للناس . واقرأ مايقوله محمد بن حبيب النسابة عن أبى جهل فى « المحبر » لتعرف حقيقة أبى جهل وتعرف كيف كان ممن (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) .

ولم يفهمها أبو لهب وهو عبد العزى بن عبد المطلب ، وكان كاتباً قارئاً ولكنه كان يرى نفسه سيداً عظيماً ، وكان شديد الغيرة من محمد ابن أخيه ، وكان يكرهه من صغره لأن محمداً كان أميل إلى حمزة وكان عمه أيضاً فحالت غيرته وكراهيته بينه وبين الإسلام . . .

ولم يفهمها اثنان من أكبر شعراء قريش فى زمانهما هما :

أبو سفيان بن الحارث ، وكان من أهل قرابة الرسول ، فلما نزلت عليه الرسالة ، حسده حسداً شديداً وأبغضه وأخرجه البغض عن إنسانيته فمضى يذم محمداً بشعره ويقذع فى ذلك .

والثانى هو ضرار بن الخطاب وكان شاعراً مجيداً ، وكان من كبار قريش يرى أن هذه الرسالة كان لابد أن تنزل على واحد من عظماء قريش لا على محمد وكان واحداً ممن عنتهم الآيات الكريمة :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحَقُّ ، قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرونَ ، وَقَالُواْ لَولاَ نُزِّلَ هَذاَ القُرْآنُ عَلَىٰ رَجُل منَ القَرِيَتَيْن عَظِيم ، أَهُم يَقسِمونَ رَحمَةَ رَبكَ نَحنُ قَسَمنَا بَينَهُم مَّعيشَتَهُم فى الحَيَاة الدُّنيَا وَرَفَعنَا بَعضَهُم فَوقَ بَعض دَرَجاتٍ لِيتَّخذَ بَعضُهُم بَعضاً سُخرِياً وَرَحمةُ رَبكَ خَيرٌ ممَّا يَجمَعُونَ ﴾ .
(الزخرف : الآيات ٣٠ ـ ٣٢) .

لهذا طلب محمد إلى رجال يثرب أن يختاروا من بين أنفسهم نقباء يعرفون الأمة وتعرفهم الأمة لكى يكون الاتصال بينه وبين أمة المدينة مباشراً ، لكى تصل رسالة الإسلام إلى الناس ـ كل الناس ، ويكون الأمر شورى بين محمد وأصحابه ، والشورى أساس من أسس تنظيم أمة الإسلام ، ووضع القاعدة لها كان الخطوة الثانية التى وضعها الرسول صلوات الله عليه بعد تكوين نواة الجماعة على قاعدة العهد والميثاق والأخذ والعطاء .

والرواية التى رويناها التى تقول إن رسول الله ﷺ قال : « **اخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم** » ، هى رواية ابن إسحاق الأولى ، وابن إسحاق رجل صادق يتحرى مايقول ، فانظر كيف أضاف الناس بعد ذلك إلى تلك الرواية الصادقة مايفسد معناها ومغزاها فاستمع إلى مايقوله البلاذرى فى أنساب الأشراف « ثم قال رسول الله ﷺ : « **إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيباً ، وإنى آخذ منكم اثنى عشر ، فلا يجدن أحد منكم فى نفسه شيئاً فإنما يختار لى جبريل فلما سماهم قال : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين** » وجعل أبا أمامة أسعد بن زرارة نقيب النقباء ، ثم قام النقباء واحداً بعد واحد فحمدوا الله وأثنوا عليه

بفضل نعمته ، وما أكرمهم به من اتباع نبيه وإجابة دعوته وتحاضوا على نصرته والوفاء بعهده وبيعته ، ثم انصرفوا » . وهذا كلام لا يصح ، لأن الفرق بين دعوة موسى ودعوة محمد جد بعيد .

فموسى كان نبياً من أنبياء بنى إسرائيل ، وقد مضى إلى مصر - وهو مصرى - لكى يخرج يهود مصر منها ويقودهم إلى أرض بقية بنى إسرائيل وهم الأسباط أى القبائل وعدتهم اثنا عشر سبطاً ، ومن تقاليد بنى إسرائيل أن يكون لكل سبط رئيس أو نقيب ، فإذا صدق خبر نقباء بنى إسرائيل فإن محمداً ﷺ لم يأت ليؤكد معنى الأسباط أى القبائل بل ليزيله ، ولا محل لنا للاقتداء بموسى . .

أما القول بأن الحواريين كانوا كفلاء على غيرهم فغير صحيح ، فقد كان الحواريون من مستضعفى اليهود الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ، ولم يكونوا كفلاء على بقية بنى إسرائيل . . .

وإذن فمن أين أتت زيادة تقليد محمد لموسى وعيسى ؟ . .

من أصحابنا أهل العلم ممن تولوا نقل السيرة إلينا على طريقتهم من التقليد . .

لقد بعث الله محمداً صلوات الله عليه منشئاً مبتكراً مجدداً ليتجدد على يديه شباب دين الله الواحد ، « القيم » أى القائم أبد الدهر ، فيأبون إلا أن يجعلوه مقلداً متبعاً . .

ولهذا فإننى بعد أن أفنيت عمراً فى قراءة التفاسير أصبحت أميل إلى أن أفسر القرآن بالقرآن والسنة وأفسر السيرة بالقرآن وصحيح الآثار ومنهج التاريخ .

لأن معظم المفسرين يذهبون بنا مذاهب شتى لا تدرى كيف ولم أتوا بها .

وأضرب لك مثلاً واحداً ، فأنت تعلم أن القضية بين العرب وبنى إسرائيل أن الله سبحانه وتعالى اشتق نبينا ـ نبى الإسلام ـ من عترة إسماعيل عليه السلام وإسماعيل هو ابن إبراهيم عليهما السلام من هاجر المصرية وهو الذبيح الذى فداه الله بالكبش العظيم . وقد أعز الله بنى إسماعيل بمحمد وبالإسلام فسادوا الدنيا وأنشأوا ملكاً وحضارة وأمة إسلامية عظيمة كانت شجى فى حلوق بنى إسرائيل ، وهذا هو سر عداوة اليهود جميعاً للعرب والمسلمين .

واليهود أو بنو إسرائيل يقولون إنهم أحفاد إسحاق بن إبراهيم جد الأسباط .

وهم لهذا يرفعون إسحاق على إسماعيل ، ويقولون إنه هو الذبيح الذى اختاره الله وفداه وأما اسماعيل فهو عندهم الطريد فى القفار وقومه هم العرب وهم عند اليهود قيدار أو تدار فيجىء الطبرى فى كتابه الرسل والملوك وينفق نحو عشرين صفحة فى تحقيق الذبيح وينتهى إلى أنه إسحاق لا إسماعيل .

فهل هذا معقول ياقوم .

غفر الله لأبى جعفر محمد بن جرير . . .

* * *

وبايعت الرسول يوم العقبة الثانية امرأتان إحداهما نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف التى اشتهرت باسم أم عمارة الأنصارية ، والثانية أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلمة من الخزرج .

هل هذه مصادفة ؟ أو أن وجود هاتين الصحابيتين الجليلتين فى هذا الحادث الحاسم كان رمزاً على جانب أساسى من تكوين أمة الإسلام ، لا موضع

للمصادفة هنا فيما نرى فإنه ليس من العادى فى ذلك العصر أن تخرج امرأتان مع قومهما بعد منتصف الليل وتذهبان إلى شعاب الجبال فى أقصى شمال مكة . لتشتركا فى اجتماع كان المفروض من بدء الخليقة إلى ذلك الحين أنه من مشاهد الرجال دون النساء .

لكى تفهم عنى ماأقوله أحدثك عما فعلته نسيبة بنت كعب بن عمرو وهى أم عمارة بعد إسلامها لتثبت للدنيا كلها أن المرأة فى أمة الإسلام الجديدة صنو الرجل وعديلته وقسيمته فى بناء الأمة وتحمل مسئولياتها ودعنا هنا من أن الشرع جعل حظ الرجل مثل حظ الأنثيين فى الميراث ، فهذا شرع لا مدخل لنا إليه والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار شريعته ، ثم إنه أمر يتعلق بالمال ، والمال ليس مقياساً لكل شىء فى حياة الجماعات ، إنما نحن نشهد هنا بناء أمة فنرى النساء فيها إلى جانب الرجال ، يبايعن ويقمن فى بناء الأمة بنصيب يعدل نصيب الرجال .

وتعال ننظر فيما فعلته أم عمارة نسيبة الأنصارية . فى يوم أحد وفى ميدان الجهاد وهو ميدان الشرف والإيمان وفيه توزن وزنها الصحيح أقدار الناس . . .

قال الواقدى إنها خرجت أول النهار إلى ميدان المعركة ومعها إناء ماء لتسقى الجرحى « فقاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسناً فجرحت اثنا عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف » .

وقالت أم عمارة « لقد رأيتنى وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقى إلا نفير « لا يتمون عشرة » وأنا وأبنائى وزوجى نذب عنه ، والناس يمرون به منهزمين ، ورانى رسول الله ﷺ لا ترس معى ، فرأى رجلاً مولياً معه ترس فقال : ياصاحب الترس الق ترسك إلى من يقاتل ، فألقى ترسه ، فأخذته فجعلت أترس عن رسول الله ﷺ . . فأقبل رجل على فرس فضربنى ، وترست

له فلم يصنع سيفه شيئاً وولى وأضرب عرقوب فرسه فيقع على ظهره ، فجعل رسول الله ﷺ يصيح : يابن أم عمارة ، أمك . . أمك : قلت : فعاوننى عليه حتى أوردته شعوب .

وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يوم أحد يقول : ماالتفت يميناً أو شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى . .

هذا قول رسول الله فى أم عمارة وهو الصادق الأمين وهى شهادة ذات معنى عظيم بالنسبة لبناء الأمة ، هنا فى بناء أمة الإسلام المرأة تحمل نصيباً قدر نصيب الرجل ، فهذا مجتمع جديد إنه مجتمع الإنسان . . والمرأة إنسان كامل فى ميزان الأمة الإسلامية كما أراد لها الله أن تبنى على يد الرسول . . .

فهل نحن نقبل بعد مارأينا من أم عمارة ومانعرف عن أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين عائشة وعن أم المؤمنين أم سلمة ، هل نقبل صحة الحديث الذى يردد ويروى حتى أصبح كأنه حقيقة لا شك فيها : النساء ناقصات عقل ودين ؟ . قد يقبلونه بشروط المحدثين ، ولكننا لا نقبله بمنهج المؤرخين . .

ثم إن رسول الله ﷺ لم يؤثر عنه أنه قال : الرجال كوامل عقل ودين ، وهل يثبت عندنا أن الرجال ـ كل الرجال ـ كوامل عقل ودين حتى يثبت فى ـ فهمنا أن النساء كل النساء نواقص عقل ودين ؟ إن كنت تريد برهاناً آخر عن وضع النساء فى المجتمع الإسلامى الجديد فاقرأ مشهد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى كما يرويه ابن سعد فى طبقاته ، ثم قل لى بعد ذلك إن كانت النساء نواقص عقل ودين .

إن كل كلمة نقرؤها فى أخبار بناء أمة الإسلام إنما هى رمز على مبدأ من مبادىء الأمة الجديدة ، والذى حدث أن الأجيال التى جاءت بعد لم تكن قادرة على الإحساس بروح عصر النبوة ، وترجمت السيرة بحسب مفهومها وتصورها ،

وإلا فهل نصدق مايقوله بن هشام فى صياغته الناقصة المحرفة للسيرة النبوية عن مبايعة أم عمارة وصاحبتها للرسول قال : يزعمون أنهما قد بايعتا ، وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : اذهبن فقد بايعتكن .

لقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة لكن الرجال سلبوها إياها فى عصور التدهور ، وابن هشام شيخ بصرى مصرى كتب فى عصر بداية التدهور وتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هـ ٨٢٨ ـ٨٣٣م وفى تلك السنوات بالذات كان الأمين والمأمون ابنا هارون الرشيد يقتل أحدهما الآخر على عرض من عروض الدنيا وهو الخلافة ، وكان أبو إسحاق محمد المعتصم ابن الرشيد أيضاً يسقط العرب ـ بناة الأمة ـ من الديوان .

ولم يكد عهد العقبة الثانية يتم وتوضع الأحجار الأولى فى بناء الأمة حتى أرسل الرسول صاحبه مصعب بن عمير داعياً إلى الله ودينه فى المدينة ويفقه أهلها ويقرئهم القرآن ، ومصعب بن عمير إنسان ورمز معا . .

كان مصعب بن عمير من أبناء سروات مكة ، فهو من عبد الدار « كان أبـواه يحبـانه وكانت أمه تكسوه أحسن مايكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة . . . وكان فتى مكة شباباً وجمالاً وسيبيا (أى تيها) كما يقول ابن الأثير فى (أسـد الغـابة) فلما أسلم تزهد وترك الدنيا وأهمل ثيابه ولم تعد له حياة خارج الإسلام . أسلم والرسول فى دار الأرقم وتنازل عن ماله كله وهاجر إلى الحبشة بدينه ، ثم عاد وهاجر إلى المدينة وكان صاحب راية الرسول ﷺ فى بدر ، ثم استشهد فى أحد . .

واقـرأ معى خبر استشهاده الرائع فى موقعة أحد . لقد قاتل وفى يده راية الإسلام حتى قطعت ذراعاه فضمهما على الراية حتى تظل عالية ترفرف ، ثم استشهد .

لقد رآه رسول الله ﷺ مسجى على أرض المعركة دون غطاء فتلا قول الله تعالى : ﴿ **مِنَ المؤمنينَ رجَالٌ صَدَقُواْ مَاعَاهدواْ الله عَلَيه فَمنُهم مَّن قَضَىٰ نَحبهُ وَمنهُم مَّن يَنتَظرُ ، وَمَابَدَّلُواْ تَبدِيلًا** ﴾ (الأحزاب آية ٢٣) .

هذا كان رسول محمد إلى أهل المدينة ولم نعرف فى تاريخ دعوة الإسلام داعياً كان أعظم بركة على الإسلام من مصعب بن عمير : فى بضعة شهور أدخل معظم أهل المدينة فى الإسلام بإيمانه وتفانيه .

وماالعبرة من إرسال الرسول مصعباً إلى المدينة داعياً ؟ العبرة أن الأمة الإسلامية لابد أن يكون لها دعاة على حدودها يمدون بساطها ويزيدون مساحتها ، ويذهبون لذلك حسبة لوجه الله وزهداً فى الدنيا وحباً فى الله ورسوله ، فهل هذه هى فكرتنا اليوم فى الدعوة ؟ .

وهل أمتنا اليوم تشعر بما كان يراه الرسول من وجوب إرسال الدعاة والمصلحين إلى الجماعات الإسلامية الناشئة أو المهددة بالأخطار واختيارهم على أعلى مستوى ، ويذهبون حسبة لله تعالى .

وهل الدعاة اليوم يتخرجون فى معاهدهم ويذهبون إلى مجاهل أفريقية وغينيا الجديدة ودواخل بورينو وإلى جنوبى الفلبين حيث يقاتل الإسلام عن وجوده . . أو يسارعون فى طلب الوظائف فى بلاد الريال والدرهم والدينار ؟ وهل الدعوة إلى الإسلام هى أن تسحنفر فى الخطب فى حى الحسين أو فى حى السيدة زينب أو تحتسب أجرك عند الله وتتوكل عليه وتسير فى آثار مصعب بن عمير ؟

ألا ترى معى أيها القارىء أننا أحسنا الصنع عندما عدنا بالقافلة إلى نقطة البداية لنسير من جديد ؟